﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾ [الحجر: 30 - 31]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

سُجودُ جميعِ المَلائكةِ لآدمَ وامتناعُ إبليسَ تَنْبيهٌ للبَشرِ على عدوِّهمُ القديمِ

لمّا أمرَ اللّه تعالى المَلائكةَ بالسُّجود في الآيةِ السّابقةِ كان كأنّه قيلَ: فماذا فعلتِ الملائكةُ، وهل سجَدوا من غيرِ توقُّفٍ؟ قيل: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ولمّا أفاد الجمْعُ العمومَ وأكّدَه كأنَّ سائلًا سأل: هل سجد جميعُ المَأمورين، فقال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾، أو يقال: لمّا أبلغَ في تأكيدِ ما أفهمَه الجمعَ استثنى إبليسَ منَ السّاجدين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجْمَعُونَ﴾: (جمع) يدلُّ على تَضامِّ الشَّيءِ، يُقالُ جمعتُ الشَّيء جمعًا[2]، ويُقال للمَجموع: جَمْعٌ وَجَميعٌ وجَماعَةٌ. وجَميعٌ وأجْمَعُ وأجْمَعونَ تُستعملُ لتأكيد الاجتماعِ على الأمر، فأمّا أجمعون فتوصَفُ به المعرفةُ، ولا يَصحُّ نصبُه على الحال، نحوَ قولِه تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، وأمّا جميعٌ فإنَّه قد يُنصبُ على الحال فيُؤَكّدُ به من حيث المعنى، نحو: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: 38][3]. والمقصودُ بـ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ في الآية: التّأكيدُ على سُرعة طاعةِ المَلائكةِ.

2) ﴿أَبَىٰٓ﴾: أصلُ الكلمَة يَدلُّ على الامتِناعِ، ويأتي بمعنى كراهيَةِ الشَّيءِ، فيُقال: أبَى الشَّيْءَ، إباءً وإباءَةً: إذا كَرِهَه. والإباءُ: شِدَّةُ الامتِناعِ وعَدَمُ القَبولِ، يُقال: أبَى، يَأْبَى، إباءً؛ أيْ: رَفَضَ وامتَنَعَ ولم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/54.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(3) الراغب، المفردات، والطيبي، فتوح الغيب: 11/159.

يَقْبَلْ، فهو آبٍ وأبيٌّ وأبَيانٌ[1]. والمقصودُ بالإباءِ في الآيةِ: الامتِناعُ مِنْ فِعْلٍ أو تَلَقّيه.

المَعنى الإجْماليُّ:

امتثالُ المَلائكةِ بالسُّجودِ تعظيمٌ لله تعالى وتشريفٌ لآدمَ

لـمّا خلقَ اللّهُ آدمَ، ونفَخَ فيه الرّوحَ، امتثلَ الملائكةُ كلُّهم لأمرِ اللّه، وسجَدوا عن آخرِهم، ما بقيَ منهم مَلَكٌ إلّا سجدَ، وسجَدوا مُجتَمِعين في آنٍ واحدٍ، لا مُتفرِّقين، إلّا إبليسَ امتنع مُسْتكْبرًا مُتعاظمًا ولم يكن مِنَ السّاجدينَ؛ تكبُّرًا منه وحسَدًا لآدمَ، وكان استكبارُه استكبارَ كُفْرٍ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَراعةُ الإيجازِ في ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

بَراعةُ الإيجاز بحذْفِ الجُمَلِ لِوُضوحِ المعنى

أوجزَ البيانُ الإلهيُّ في الكلامِ بحذْفِ الجُملِ بما يدلُّ عليه السّياقُ، والتّقديرُ: فخلقَه فسوّاه فنفخَ فيه الرّوحَ فأمرَ الملائكة بالسّجودِ له فسجدَ الملائكةُ[3].

دَلالةُ الفاءِ في ﴿فَسَجَدَ﴾:

المُبادَرةُ إلى الائتِمارِ من غيرِ مُهلةٍ من فِعْلِ المَلائكةِ الأطْهارِ

ظاهِرُ الآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تعالى لَمّا نَفَخَ الرّوحَ في آدَمَ ﷺ أوجَبَ على المَلائِكةِ أَنْ يَسْجُدوا له؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ مَذْكورٌ بِفاءِ التَّعْقيبِ وذلك يَمنَعُ مِنَ التَّراخي، فأفادَ أنَّه لمّا أمرَهم سجَدوا من غيرِ مُهلةٍ ولا توقُّفٍ لمّا جاء وقتُ السُّجود، وأنَّ سجودَهم كانَ بسببِ هذا الأمرِ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أبا).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/66، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/534، والشوكاني، فتح القدير: 3/157، والزحيلي، التفسير المنير: 23/231.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/140، والبقاعي، نظم الدرر: 11/54، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/149.

إيثار الإظهارِ في: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

كان الظّاهرُ أن يقولَ (فسجدوا) لقُربِ ذكْرِ الملائكة، فجاء الكلامُ على خلافِ مُقتضى الظّاهرِ، بالإظهارِ في موضعِ الإضمارِ؛ لإظهارِ رِفعةِ شأنِ الملائكةِ الذين سجَدوا، وللإشعارِ بعلّيَّة سُجودِهم وهو كونُهم ملائكةً ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]، لِيُنبِّهَ على أنَّ إبليسَ ليس منَ الملائكةِ كما سيأتي.

رِفْعةُ شأنِ المَلائكةِ لمّا بادَروا إلى السُّجودِ لآدمَ

سِرُّ التّأكيدِ بقولِه ﴿كُلُّهُمْ﴾:

يحتملُ لفْظُ الملائكةِ أن يكونَ جمْعًا عامًّا مُحتملًا للتّخْصيص وأن يكونَ على معنى الغالبِ والأكثرِ، فجاء التّوكيدُ بلفْظِ ﴿كُلُّهُمْ﴾ لِقطعِ باب التّخْصيص؛ ليُفيدَ الجزمَ بسُجودِ كلِّ الملائكة واستغراقِ اللّفظِ لهم جميعًا[1].

القَطْعُ بسُجودِ عُمومِ المَلائكةِ واسْتِغراقِ اللّفظِ لهم

سِرُّ اقْتِرانِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ بـ ﴿كُلُّهُمْ﴾:

يحتملُ أن يكونَ مَجيءُ لفظِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ لإفادة التّأكيدِ بعدَ التأكيد، مبالغةً في تعميمِ جميعِ الملائكةِ ولمنْعِ التّخْصيصِ، ويحتملُ أن يكونَ لكلِّ لفْظٍ معناه، فيفيدُ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ التّأسيسَ، وبيانُه إنَّه لمّا قال ﴿أَجْمَعُونَ﴾ أفادَ دفعَ توهُّمِ تأخُّرِ أيٍّ واحدٍ منهم أوِ امتناعِه، بمعنى تقريرِ أنَّه لم يمتنِعْ ولم يتأخّرْ في ذلك أحدٌ منهم عن أحد، ويلزمُ منه اجتماعُهم على السّجودِ في وقتٍ واحدٍ دفعةً واحدةً، وهو الظّاهرُ من مُبادرتِهم إلى السُّجودِ، ويدلُّ عليه مأخذُ الاشتقاقِ للفظِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ الذي فيه معنى الجمْعِ والمعيَّةِ بحسبِ الوضْعِ اللّغويِّ، كما أنَّ الأصلَ في الخطابِ تنزيلُ اللّفظِ على أكملِ أحوالِه، ولا ريْبَ في أنَّ سجودَ الملائكة مُجتمِعين أكملُ أصنافِ السُّجود وأجملُه وأوفَى للائتمار وأظهرُ في تكريمِ آدمَ وتشريفِه، ولمّا شاع استعمالُ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيداً أُقيمَ مَقامَ (كُلّ) من إفادة معنَى الإحاطة من

سُجودُ المَلائكةِ كلّهم أكمَلُ أصنافِ السّجودِ، وزيادةٌ في التّشريفِ والتّكريمِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/188.

غير نظَرٍ إلى الكمالِ، فإذا فُهِمَتِ الإحاطةُ من لفظٍ آخرَ لم يكنْ بدٌّ من مُراعاةِ الأصل صونًا للكلام عنِ الإلغاء، ولِيكونَ ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ على التّأسيسِ مع تضمُّنِه معنَى التّأكيدِ، أو يقال: لمّا كانَ ذكرُ الكلِّ يحتملُ أن يكونَ بتأويلِ التّفرُّقِ قطَعَه بقوله ﴿أَجۡمَعُونَ﴾، وأشعرَ التّتابُعُ بلفظِ ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ أنَّ خروجَ الواحدِ منَ الائتمار بالسُّجودِ لا يقدحُ في تشريف آدمَ ولا في تكريمِه، وأنَّ خروجَه لا يُعبَأُ به[1].

فائدةُ حذفِ المُتعلَّقِ في ﴿فَسَجَدَ﴾:

الإيجازُ مع وُضوحِ المعنَى، وأنَّ طاعةَ الله أشرفُ من خُصوصيّةِ النّظرِ إلى مَن سُجِدَ له

لمّا كان التّقديرُ في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ هو: (فسجدَ المَلائكةُ كلُّهم أجمعون له)، أيْ لآدمَ، كان حذْفُ الجارِّ والمجرورِ للإيجازِ مع وضوحِ المعنَى، وللإشعارِ بأنَّ النّظرَ أوّلًا وبالذّاتِ إلى الائتمار بأمْرِ السُّجودِ، وليس إلى خُصوصِ من سجَدوا له، ولهذا حُذفَ المتعلَّقُ كذلك في قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: السّاجِدين له.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظِيّ:

سُجودُ المَلائكةِ لآدمَ على وجْهِ الخُضوعِ لله والائتمارِ بأمْرِه لِتحيَّةِ آدمَ وتكريمِه

قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: 206]، فقولُه ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: 206] يُفيدُ الحَصرَ، وذلك يدلُّ على أنَّهم لا يَسجُدون إلّا للّه تعالى، وذلك يُنافي كَوْنَهُم ساجِدينَ لِآدَمَ عليه السلام، وبيانُه أنَّ سُجودَهم لآدمَ هو سجودُ تحيَّةٍ لمخلوقٍ، وليس سجودَ عبادةٍ كما هو حالُ سجودِهم للّه تعالى، لِقرينة قولِه: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 206]، ولهذا عرَّفَ اللّه تعالى الملائكةَ بأنَّ آدمَ مخلوقٌ، ثمَّ أمرَهم بالسُّجودِ له، فكان سُجودُهم على وجْهِ الخضوعِ لأمرِ الإله

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/140، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والبقاعي، نظم الدرر: 16/420، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/150، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/289.

تحيَّةً وتكريمًا لآدمَ، ولهذا جاء في قولِه تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ أي: لا سُجودَ لأحدٍ منَ المخلوقاتِ إلّا لآدمَ تكريمًا وتشريفًا له، كما تقدَّمَ.

دَلالةُ الاسْتِثناء في قوله ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾:

إبليسُ ليسَ منَ جنس المَلائكةِ

يحتملُ أن يكونَ الاستثناءُ مُنقطعًا، فيكونَ إبليسُ ليس منَ الملائكة، وإنّما استُثْنِيَ؛ لأنّه كان بينَهم مأمورًا معهم بالسُّجود، فغُلِّبَ اسمُ الملائكة، ثمّ استُثْني بعدَ التّغليب، ويحتملُ أن يكونَ الاستثناءُ متّصلًا فيكونَ إبليسُ منَ الملائكة، والوجْه الأوّلُ هو الصّوابُ واستظْهَره كثيرٌ منَ المُفسّرين(1).

دَلالةُ قولِه ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

جمَعَ إبليسُ بامْتِناعِه عن السُّجودِ بين العصيانِ والاستكبارِ ومفارقةِ الجماعةِ المؤتمِرين بأمرِ الله

إن كان الاستثناءُ مُنقطعًا كان المعنى: لكنَّ إبليسَ أبى أنْ يكونَ مع السّاجِدين، ويحتملُ أن تكونَ (لكنَّ) بالتّشديد تَقْتضي اسْمًا وهو إبليسُ، وخبرًا وهو الجملةُ الفعليّةُ ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، أو تكونَ حرْفَ استدراكٍ، وإن كان الاستثناءُ متّصِلًا كان الكلامُ على طريق الاستئنافِ، فكأنَّه وقعَ في جواب سؤالٍ أفادَه الاستثناءُ، لبيانِ كيفيَّةِ عدمِ سُجودِه فإنَّ مُطلقَ عدمِ السّجود قد يكونُ مع التّردّدِ، وتقديرُه: هل سجدَ إبليسُ؟ فقال: أبى أن يكونَ مع السّاجدين، وعلى الوجهَيْن في الكلامِ دَلالةٌ على كمالِ رَكاكةِ رأيه حيث أدمجَ في معصيّةٍ واحدةٍ ثلاثَ معاصٍ: مخالفةَ الأمرِ، والاستكبارَ مع تحقيرِ آدمَ عليه السلام، ومفارقةَ الجماعةِ والإباءَ عنِ الانتظامِ في سلْكِ أولئكَ المُقرَّبين الكِرامِ(2).

---

(1) الطيبي، حاشية على تفسير الكشاف: 9/32.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/150، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/290.

مَعْصيةُ التّكبُّرِ أوجَبَتْ لإبليسَ الطَّرْدَ والإبْعادَ

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿أَبَىٰٓ﴾:

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بـ﴿أَبَىٰٓ﴾؛ للإيذانِ بشدّةِ امْتناعِه منَ السُّجود، وأنَّه لم يكُنْ مُتردِّدًا، فعُلِمَ أنَّ امتناعَه منَ السُّجود للإباءِ والاستكبارِ، فدلَّ على أنَّهُ عَصَى، وأنَّهُ تَرَفَّعَ عَنْ مُتابَعَةِ غَيْرِه[1].

إبليسُ ليس من جِنْسِ الملائكةِ وكان مَعَهم على التَّبَعِ

دلالة التَّعبيرِ بقولِه ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

لم يقُلْ (أبى أن يكون من الساجدين)؛ للإشعارِ بأنَّه ليس من جنْسِهم، بل كان معهم، ودخلَ في لفْظِ (الملائكة) على التّغْليبِ، كما أنَّ لفْظَ المعيَّةِ يفيدُ أنَّه كانَ معهم على التَّبعِ لا على الأصالةِ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/290، والقونجي، فتح البيان: 7/166، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/46.